

أضواء البيان

@ 84 { وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكْفُرُونَ سَوَاءٌ } . قوله تعالى : { لَنْ تَنْفَعَكُمُ الْأَرْحَامُ كُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْضَلُ بَيْنَكُمْ } . الأرحام تستعمل في القرآن لعموم القرابة ، كقوله تعالى : { وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ } ، وقوله تعالى : { يَفْضَلُ بَيْنَكُمْ } أي بتقطع الأنساب بينهم ، كما بينه تعالى بقوله : { فَإِذَا زُفِّخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } . . . وقد بين تعالى نتيجة هذا الفصل بينهم يوم القيامة في قوله تعالى { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } ، وقوله في موضع آخر : { وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُأْوِيهِ } ، فعمت جميع الأقارب وبينت سبب الفصل بينهم ، وما يترتب عليه . . .

وهذه الآية خطاب للمؤمنين في ذوي أرحامهم من المشركين ، كما في قصة سبب النزول في أمر حاطب بن أبي بلتعة في إرساله الخطاب لأهل مكة قبيل الفتح بأمر التجهز لهم . . . ومفهوم الوصف في أول السياق عدوي وعدوكم ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يدل بمفهوم المخالفة أن أولى الأرحام من المؤمنين قد لا يفصل بينهم يوم القيامة . . . ويدل لهذا المفهوم قوله تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنسَلْنَا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَشَاءُونَ } ، وقوله تعالى في دعاء الملائكة من حملة العرش للمؤمنين : { رَبِّ إِنَّا وَادَّخَلْنَاكَ وَأَدَّخَلْنَاكَ عَدُوَّكَ وَعَدَدْنَاكَ لِنَبْلِيَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَشَاءُونَ } . . .

وهذه الآية بيان واضح في أن روابط الدين أقوى وألزم من روابط النسب . . . وهذا المعنى بالذات تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه ، الكلام عليه عند قوله تعالى : { إِنَّ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، الآية الآتية بيان واضح لحقيقة هذا المعنى وشموله في جميع الأمم .